اللا منتمي والتّقوقع على الذّات والذّاكرة
الأنساق المضمرة في رواية "أربعُون عامًا في انتظار ايزابيل" لسعيد خطيبي.

The Implicit Themes in "Arba'una Aaman Fintizari Isabelle" Novel [Forty years of Waiting for Elisabeth] by Said Khatibi

أ. د. حياة مختار أم السّعد‡

تاريخ الاستلام: 2021.05.30 تاريخ القبــول: 2021.07.19

ملخّص: لا تزال الكثير من الكتابات الأدبيّة الجزائريّة لصيقة بفترة الاستعمار وما بعدها تحاول أن تنبّش في الماضي بحثا عن أسئلة الكينونة ومعرفة الذّات، والرّواية التي تطالها هذه الدّراسة ترسم بكل تفاصلها صراع الذّات التي لا تشعر بالانتماء وترفض الاعتراف بالتّشوهات التي تُربك وجودها لأنّها لم تعرف سبيل المواجهة بل اختارت الهروب إلى الماضي لتبرير أفعالها والتّماهي مع شخصيّة لا تمت إليها بصلة إيزابيل ابرهارت الغائبة تصارع جوزيف وجوده السّوداوي الكاره لكل ما يربطه بالجزائر فلماذا يا ترى تكلم جوزيف في الرّواية؟ ماذا أراد أن يقول للقارئ الجزائري؟ كيف رسم بصوته ملامح جزائر الاستعمار وما قبل التّطرف؟ هل وضع اليد على منابت الأزمة أم أنّه تبنى رؤيّة نمطيّة جاهزة تلعن الأصوليّة دون الوقوف على أسبابها؟

كلمات مفتاحيّة: أدب جزائري؛ استعمار؛ ما بعد استعمار؛ تطرف، نمطيّة.

‡جامعة أبو القاسم سعد الله الجزائر2، البريد الكتروني: oumssadhayet@gmail.com (المؤلّف المرسل).

Abstract: Many Algerian literary works are still inherent to the colonial era and the postcolonial one, still digging up the past looking for being questions and self-knowledge. The novel that is concerned with this research paper details the self's struggle that does not feel the sense of belonging and refuses to admit the distortions that threaten its existence. This is because it did not find the way to face, but, rather, chose to escape to the past to justify its actions and set aligned to the character that has nothing to do with it. The absent Isabelle Eberhardt fights Joseph's blackish existence, hating all that ties him to Algeria. Then, why did Joseph talk in the novel? What did he want to say? How did he shape colonial and pre-extremist Algeria through his voice? Did he lay hands on the crisis background, or did he adopt a ready stereotyped conception, damning fundamentalism with no identification of its causes?

Keywords: Algerian literary; colonial; postcolonial; extremist; stereotyped.

1. المقدّمة: يصب فحوى هذا المقال في موضوع جدّ مُربك يطال فترة تاريخيّة لصيقة بذاكرتنا ووجداننا، وهي الفترة الاستعماريّة وما بعدها، سنتناول بالدّراسة والتّحليل رواية معاصرة كتبها شاب جزائري، نتأمل من خلال ما كتب تمثلات جيل ما بعد الاستقلال لمجريات تاريخيّة نخالها معلقة بحاضرنا ومستقبلنا، فكيف تمثّل الرّوائي فترة الاستعمار وما بعدها؟

1-مهمشو التّاريخ، الانتماء المستحيل: قبل الولوج إلى عمق هذه الدّراسة نضع لها إطارا نحاول من خلاله تجنيس النّص للتركيز على المحتوى الذي اقتطف

من حقبة تاريخيّة جد لصيقة بالذّاكرة الجزائريّة المشتركة، ولعل الأساس الذي ننطلق منه هو سؤال جوهري لماذا يا ترى أصبح التّعكز على التّاريخ والذّاكرة في كتابة الأعمال الأدبيّة ملحا في الآونة الأخيرة؟ إلام تعود وظائف هذا التّوظيف؟ هل الماضي جزء من الحاضر أو أنّ العمل الأدبي في توظيفه للتاريخ يجعل الماضي حاضرا بالقوة، بل يجعله هو الحاضر؟

إنّ مسألة توظيف التّاريخ في الأعمال الأدبيّة عرفت شيوعا وتراكما متزايدا، حسب الكثير من الدّراسات، في بداية الألفينيات، ولعلّ المفسرين الذين طرحوا مقاصد هذا التّوظيف ركزوا على مسألة جد مهمة اقترنت بالتّحولات التي مست العالم بأجمعه فالدّخول في مجالات اقتصاديّة جد متوحشة وذيوع الإمبرياليّة الفجة، وانقشاع فترة الحروب التي ألهبت العالم لفترات جد ممتدة، والسّقوط في شراك كذبة العولمة، والعالم قريّة صغيرة، ولّد العديد من القضايا تعلقت بذاكرة الشّعوب وهوياتها المقهورة تلك التي بقيت تحت نيران الاستعمار، ممّا شوّه بنيتها المعرفيّة والهوياتيّة والتّاريخيّة، وإن كانت كتب التّاريخ دونت هذه الفترات بالتّواريخ والعقود والاتفاقيات، إلاّ أنّ مثل هذه الكتابات تغوص في الموضوعي، ويبقى الأدب هو الوحيد القادر على الغوص في ثنايا الذّات بحثا عن الأصوات التي أخرجها التّاريخ الرّسمي من حيز الوجود، وهُمشت عنوة من قبل المهيمنين.

إنّ استحضار الأوجه المتعدّدة المسكوت عنها يعيد ملء فراغات كثيرة حفت حقبة ما، تعود إلى السّطح بحثا عن الهويّة والانتماء في عالم لم ينصفها فيه أحد، لأنّها تولت من المركز إلى هامش الوجود والذّاكرة والواقع.

لهذا عدّ "ادوارد سعيد" التّجربة التّاريخيّة مهمة جدا لانّ لها علاقة وطيدة بالثّقافة والامبراطوريّة، ووفق هذه العلاقة يحدد منهجه في قراءة الأعمال الأدبيّة يقول: "إنّ طريقتي هي أنّ أركز قدر المستطاع على أعمال فرديّة، أن أقرأها أوّلا كنتاج عظيم للخيال الخلاق أو التّأويلي، ثم أن أجلوَ كونها جزءا من العلاقة بين الثّقافة والامبراطوريّة، أنا لا أؤمن أنّ المؤلفين يتحددون بصورة آليّة بالعقائديّة (الأيديولوجيا) أو الطّبقة أو التّاريخ الاقتصادي بيد أنّ المؤلفين، كما أؤمن، كائنون إلى حد بعيد في

تاريخ مجتمعاتهم، يشكلون ويتشكلون بهذا التّاريخ وبتجربتهم الاجتماعيّة بدرجات متفاوتة، إنّ الثّقافة والأشكال الجمالاتيّة التي تنطوي عليها لتشتق من التّجربة التّاريخيّة" (ادوارد سعيد،2004)[1]، إذا ينطلق الكُتَّاب حتما من تجاربهم التّاريخيّة المستمدة من تاريخ مجتمعاتهم وثقافتهم، وإذا كانت هذه التّجارب التّاريخيّة مستمدة من شعوب مقهورة هل يمكن للأدب أن ينصف قضايا المقهورين والمهمشين، أم تُشوه أيديولوجيّة الكتابة مسارات التّاريخ وتغوص بنا في أسئلة يصبح فيها النّص أسير مقاصد الكتابة، فبدل استحضار الأوجه المبعدة إلى الظّل من قبل التّمثيلات المهيمنة لإنصافها، نسقط في انتاج هيمنة جديدة ونحن نسرد تاريخ الآخرين وتاريخنا معه ونصوغ تجربتنا التّاريخيّة؟

فعلا هي أسئلة مربكة تعيد إلى الأدب جدواه وقيمته مادام قادرا على إثارة قضايا تمسّ التّواريخ المشتركة، وترسم بوجهات نظر متعدّدة تاريخ عوالم لم نعرفها إلاّ من خلال كُتب متخصصة تلقننا محتوياتها دون أن نواجه أسئلة تضع ما نقرأ محل تساؤل أو ريبة، أو التّفكير في وجود مَرْويّات معقّدة حُجبت لأسباب معينة. فالمتن المختار للتحليل والدّراسة يستحضر "تاريخ الجزائر" تحديدا، إلاّ أنّه ينسج مفارقة (حياة أم السّعد،2020)[2] من حيث وجهة نظره لهذا التّاريخ، فالحمولة الثّقافيّة والتّاريخيّة المُؤَدلَجة تلعب دورا مهما في توجيه النّص، خاصّة حين يستمد مادته من الذّاكرة، والذّاكرة كما يرى "جاك لغوف": "مادة التّاريخ الأوليّة، وهي تمثل بشكلها الذّهني أو الشّفوي أو الكتابي، الينبوع الذي ينهل منه المؤرخون، ولأنّ عملها في الأغلب غير واع، فإنّها تتعرض أكثر من غيرها لخطر الخضوع لتلاعبات الزّمن والمجتمعات "(جاك لوغوف 2017)[3]. فهل يا ترى تلاعب النّص بذاكرتنا التّاريخيّة؟ أم أنّه أضاء مناطق مظلمة فيه؟ لماذا يا ترى تحضر إيزابيل ابرهارت[4] في الرّواية؟

أعتقد بعد قراءتي لرواية: "أربعون عاما في انتظار إيزابيل" أنّها "سيرة غيريّة"، والسّيرة كتابة عن الذّات في بعدها التّاريخي، ذات تستدرج الذّاكرة لترسم واقعا مرّ عليه زمن لكنّه يظل جزءا من المستقبل أكثر من الحاضر، منح الرّوائي صوتا مهيمنا لبطل النّص وهو "جوزيف رينيشار" أسير ذاكرته وواقعه، بطل رواية "أربعون عاما في انتظار

إيزابيل"(سعيد خطيبي، 2016)[5]، منغلق على ذاته مفرط في لا انتمائه. لهذا ونحن نقرأ هذه الرّواية شغلتنا أسئلة ملحّة من بينها:

–لمن يكتب "سعيد خطيبي"؟ لماذا اختار بطلا "فرنسيا" قرر البقاء في الجزائر بعدما شارك في ثورتها، لكنه لا يتوقف طيلة الرّواية ومدة أربعين عاما على نبذ كلّ شيء: المدينة وأهلها وتقاليدها وحتى شخصيات بارزة لها حضور في تاريخها...؟ ما هو المسكوت عنه في هذه الرّواية؟

–كيف يرسم النّص صورة "أصدقاء الجزائر؟ كيف تتجسد رؤيّة الرّوائي ووعيه بالتّاريخ الجزائري؟ كيف يمثل علاقة الأنا بالآخر؟

–هل استطاع النّص الوصول إلى تصوير الماضي الاستعماري والتّصريح بموقفه منه؟ أم أنّ الجنس الذي ينتمي إليه النّص والذي يدخل في "أدب الذّات" يبقى مُتمحورا حول الذّات التي تنتقي من ماضيها وحاضرها ما يعزز ذاتيتها دون الاهتمام بالآخر وتاريخه؟ هل حافظ المؤلف على حدوده الزّمانيّة والمكانيّة والدّلاليّة مع البطل، وبقي خارج اللعبة أم أنّه تطابق معه؟

2–اللامنتمي والتّقوقع على الذّات والذّاكرة: إذا كان "سعيد خطيبي" روائيا جزائريا فإنّ البطل الذي اختار أن يمرر عبر مصفاته رؤيته للعالم تمثّل في شخصيّة فرنسيّة "جوزيف" الذي عاش في بوسعادة فهو ابن بلدته وصديق والدّه، أي أنّ النّص بمثابة "سيرة غيريّة تخيليّة"، لملمت حياة رجل فرنسي عاش في مدينة بوسعادة، منحه الرّوائي صوتا ولغة ليسرد أيامه الأخيرة قبل أن يغادر أرضا عاش فيها أربعين سنة دون أن يحس بالانتماء إليها: "الآن أعتقد أني لم أفهم الشّيء الكثير مما يحدث في هذا البلد، فقد عشت فيه أربعين عاما. بما يكفي لأفهم أحشاءه، وما خلف أحشائه، وما يكفي لإدراك ميوله ومزاجاته، لكن في النّهاية وجدت نفسي عاجزا عن تفسير ما يدور حولي... أربعون عاما قضيتها في التّسكع، في معاركة نفسي، وفي البحث عن وجه لي، أربعون عاما مرت ونار الانتظار تلتهم قلبي ببطء أربعون هو رقم اللعنات التي لم تفارقني."(سعيد خطيبي، 2016)[6]، بعد كل الزّمن الذي أمضاه "جوزيف" وسط الجزائريين لم يكن أبدا قادرا على الانتماء والاندماج معهم، بل ظل ذلك الفرنسي "روميا

وليس مسلما كامل الإسلام، ولا مطيعا متما لأركان الدّين الخمسة..."(سعيد خطيبي،2016)[7] هي نظرة الآخر له، ينقلها جوزيف ويتكلم دون أن يمنح أحدا صوتا بل يمرر كلّ كلام الآخرين وفق وجهة نظره، هو المتحرز من الآخر (الجزائري بالنّسبة له) الذي يعيش معه، وكأن جوزيف مرغ نفسه في أنانيّة المركزيّة الغربيّة فشكل بذلك جدارا رافضا للاندماج مع السّكان الأصليين.

سيطر "جوزيف" على كل وجهات النّظر، وكل خطاب من خطابات الآخرين المُدرجة ضمن خطابه محملة بوعيه هو، وموقفه من رؤيّة الآخرين له، ينقل غربته واحساسه بالوحدة المملوءة بالضّغينة على مدينة احتوته طيلة أربعين عاما، وأصبح جزءا منها لكن شعوره باللانتماء وبالخوف ظل مسيطرا عليه لا يفارقه طيلة حياته: "هل يشك أهالي المدينة فيّ أنا أيضا؟ هل يظنون أنني جاسوس؟ مثلما كانوا يشكون في الرّسام سيء الذّكر إيتيان دينيه؟ لست أعرف، لم يسبق أن قالها لي واحد منهم صراحة، لكن ربما يتحدثون عني في سرهم بأشياء قبيحة، وينسون في عمق أنانيتهم أنني صرفت مالا وبذلت جهدا من أجل رجالات الثّورة التّحريريّة، وأني تصدقت بنصف ما أملك من مال، عقب الاستقلال، لصندوق الدّولة، للمساهمة في إنعاش الاقتصاد، دفعت مالا أكثر من وبذلت جهدا للتأقلم مع الحياة النّاعسة والفاترة هنا، وامتنعت، منذ أربعين عاما عن الاحتفال بعيد القديسين في الفاتح من كل شهر نوفمبر قيمة بعض القلادات والخواتم التي تبرعت بها نسوة ميسورات عام 1962، وتغاضيت عن عيد الفصح، وعيد الصّعود، وعيد الخمسين، وانتقال العذراء، وكل المناسبات الكاثوليكيّة الأخرى التي ورثتها من أمي ومن طفولتي في فرنسا، تنازلت عنها، لكن أعتقد جازما أنّ بعض الحمقى يشكون في إسلامي"(سعيد خطيبي،*2016*)[8]. يبني "جوزيف" أحكامه من العدم من الشّعور باللا تمركز في فضاء هجين أفقده توازنه النّفسي والعقلي وأبعده عن الإحساس بالآخرين، لم يستطع أن يتخلى عن فوقيّة مموهة باعتباره فرنسيا يعيش في بلدة جزائريّة، بعدما شارك في ثورتها، وأسهم في الرّقي باقتصادها، الذي خربه مستعمر غاشم ينتمي إليه، متناسيا أنّ الثّروة التي قدّمها هي حق هذه الأرض المغتصبة فأحكامه التي يطلقها هي نسيج صوتي متعدّد يموج في ذهنه يردّده بعدما تماهى مع خطابات

قيلت عن غيره من الأجانب الذين كتبوا عن الجزائر وعاشوا فيها، وتبقى علاقته مشبوهة مع الإنسان الوحيد الذي استساغ وجوده في حيزه وهو سليمان الشّخصيّة المنقادة التّابعة التي حملها معه إلى فرنسا بعد أن غادر الجزائر في عز أزمتها، "جوزيف" شخصيّة نكرة في أرض الواقع، جُعل لها حضور في النّص وتمركز لأنّه ربط وجوده وذاكرته برموز ثقافيّة وتاريخيّة جرّدها من اختلافها معه، ليرسم بها رؤيّة انسان منغلق على ذاته فاقد لمعطيات التّعايش والاعتراف، فيرمي الآخرين بالسّوء بحثا عن موقع جديد في فضاء لا ينتمي إليه، ويحاول أن يبرر فعل الانتماء بالتّذكير بالأشياء التي قدمها للجزائر وللسكان، وفي حقيقة الأمر كل خطابات "جوزيف" كانت تعكس وتفضح عمق فوقيته، وحجم ذاته المشوهة الممزقة بين فضاءين، شخصيّة لم تختر طريقا يقنعها لتسير عليه، بل تعيش تشوها وتذبذبا يمنعانها من التّفكير خارج حدودها الذّاتيّة وأنانيتها لهذا كانت رؤيتها للعالم مقتضبة ومنغلقة، لا تقدم لها إلا الجزء المشوه للآخرين، الذين لا تتوقف عن ذمهم وتتبع سقطاتهم، فهي لا تراهم لكن تنعكس صورة عالمها الدّاخلي المشوه عليهم، فالتّشوه من الدّاخل يسقط على الخارجي ونلمس هذا جليا حين يحاور جوزيف ذاته ويسائلها في قضايا مهمة مثلا: هل فعلا شارك في الثّورة عن قناعة؟ هل هو مسلم؟ هل فعلا أدى مناسك الحج باقتناع أو أدى طقوسا لينعم باعتراف الآخر.

يعيش "جوزيف" حربا مع ذاته، لأنه يعاني شرخا هوياتيا يربكه ويجعله محاطا بشكوك دائمة، غير قادر على اتخاذ هويّة واحدة يعيش بها، فلا هو مسلم ولا هو مسيحي، ولكنّه معا، يصوم ظاهرا وهو مفطر، يؤدي مناسك الحج ليكسب موقعا ما في فضائه الجديد، ويذهب إلى الكنيسة: ""أنا الكائن الوحيد الذي يزور، من حين لآخر الكنيسة المتوحدة، الباردة، والصّامدة وسط المدينة، التي تستميت في مكانها منذ قرن ونصف القرن، أزورها بحب كأرملة مخلصة لزوجها، أحمل إليها شموعا وأوقدها بنفسي أنفض الغبار على الكراسي الخشبيّة، وعلى الصّلبان وأصلي، وعيني لا تغفل عن حارس المكان الخمسيني، رث الملابس، الذي يصر على التّحديق في كأنه يشفق على حالي، ربما يحدث نفسه: ماذا يفعل هذا العجوز البائس هنا؟ فعلا ماذا أفعل في بقعة غادرها الأجانب وأبناء الوطن؟ ولم يبق فيها سوى الأقوياء، وقبالتّهم الضّعفاء العاجزون

عن الإمساك بقرار، بقعة صار يتهددها طوفان باللونين الأبيض والأسود، فالانتخابات ليس يفصلنا عنها سوى أيام قليلة، وانقلاب عميق ربما سيحصل، أصلي صلوات سريعة وقلقة، أدعو الرّب أن ينجيني وسليمان من كل مكروه، ثم أرسم إشارة الصّليب وأخرج مهرولا (سعيد خطيبي،2016)"[9]. تمزق وشرخ يجلي " تشنجات عظيمة وخيبات وخيمة راجعة كلها إلى مسألة أنطلوجيّة (وجوديّة) تدور على أن الوعي المعلب للأنا الغربي بسبب نظرته السّطحيّة للآخر الشّرقي، لم يستطع التّماهي بتاتا مع شرقه المتخيل أثناء عمليّة الاحتكاك"[10] (وحيد بن بوعزيز، جدل الثّقافة) فجوزيف لم يجد الشّرق الذي تحدثت عنه ايزابيل في مقالاتها ويومياتها فما كتبته لا يساوي الشّرق الذي يعيشه جوزيف، لهذا ظل يبحث عنها ليرى الشّرق فيها، أو ليخبرها أنّ الشّرق كما يراه مفجع وصادم.

لم يستطع "جوزيف" تقبل فعل الانتماء[11] لهذا تحاصره الأسئلة والنّظرات والتّوجسات يفكر في الرّحيل قبل أن تشتعل الفتنة التي لا يُرى منها الخيط الأبيض من الأسود يخاف من الموت: " لو مت في هذه المدينة التي تفوح منها رائحة الوسواس، سأضمن على الأقل أن يزورني سليمان في مرقدي...، لكن لو مات قبلي فلن ألاقي سوى مصير شبيه بمصير إيزابيل، سأرحل كلقيط وأريح العالم مني وأستقر في قبر بارد وعفن وربما بلا شواهد وبلا هويّة"(سعيد خطيبي، 2016)[12]، عششت رائحة الوسواس في ذهن جوزيف حتى عمقت شعوره بالتّهميش فانطوى على ذاته، يصارع في عالمه الدّاخلي هواجس نظرات الآخرين له وشكهم الدّائم فيه، لكن لماذا كل هذا الخوف من الآخر؟ ماذا فعل له سكان بوسعادة ليعمق الهوة بينه وبينهم ويراهم بدونيّة كبيرة وينقل رؤيتهم له دون أن يصرحوا له بشيء؟ لماذا جعلهم هامشا في نصه لا يتكلمون إلاّ عبر تخيلاته وصراعاته الدّاخليّة المريضة؟

عاش "جوزيف" في بوسعادة ظاهريا أمّا باطنه المحمل بعبء اللا انتماء جعل منه شخصا عدميا، يعيش على هامش حياة اختارها، لكنّه يمارس طقوسها سطحيا فقط غير راض على المكان ولا على النّاس، فانكفأ على ذاته يحاورها وينقل ما يعتقد أنّها نظرة الآخر له، وهروبا من هذا الواقع يستحضر طيلة الرّواية شخصيّة إيزابيل ابرهارت[13]

كما يريد أن يراها، ليستطيع التّماهى معها، وإن كان قد شوهها من أجل أن تتطابق مع ميوله، شوه تاريخها وجعل كل أمراضه تُسقط على هذه الشّخصيّة الغربيّة التي أثيرت حولها الكثير من الأسئلة[14] (أبو القاسم سعد الله، 2016): "ربّما سأفعل الشّيء نفسه في فرنسا، اخفي كبائري بسذاجة صبيانيّة، كما كانت تفعل ايزابيل مع زوجها سليمان تأكل وراء ظهره، ثم تقيم صلاة التّراويح بين صفوف الرّجال مثله، تدخن في بيت الخلاء في النّهار، وتقتسم الخبز وحساء الشّوربة معه على مائدة الإفطار في المساء.... لا أحد شك في انتمائها للإسلام، ولم يجد خصومها من شيء للطعن في شخصها سوى اتهامها بالعمالة للإنجليز، ومرة أخرى بالعمالة للفرنسيين، ومرة ثالثّة بالعمالة للألمان ومن دون أن تنتبه، كانت الالسّنة تنقلها من بلد إلى آخر.."(سعيد خطيبي، 2016)[15] ، يقابل أفعال إيزابيل بأفعاله في شكل مطابقة:

"هل يشك أهالي المدينة فيّ أيضا؟ هل يظنون أنّني جاسوس؟ كما كانوا يشكون في الرّسام سيء الذّكريات"، دام استحضاره لها طيلة الرّواية لأنّها المعروفة وهو النّكرة فالقارئ لا يعرف عن" جوزيف" شيئا لكنّه يعرف الكثير عن "ايزابيل": "نظرت من حولي وأنا في حالة أشبه بالمغشي عليه، ربّما عشت، بما فيه الكفاية، لكنّي لم أفهم حياتي بما فيه الكفاية، هناك حلقات ضاعت مني، ولن أجد أحدا ليساعدني على إدراك المهمات، وقد تكون إيزابيل أيضا عرفت شعورا مثل ذلك الذي تملكني، فهي عاشت رحالة، ومحبة لهذه الأرض، من دون أن تستوعب تفصيلاتها كما يجب، ولكن ليس من العيب أن نعيش في مكان من دون أن نفهمه على حقيقته، المهم أن نستوعب ما يمس يومياتنا وحاجياتنا الصّغيرة، وليس من الضّروري الإحاطة بالقضايا الجماعيّة"(سعيد خطيبي،2016)[16].

نلاحظ قمة التّفرد والتّقوقع على الذّات، فجوزيف لم يستطع التّأقلم مع الفضاء الثّالثّ فعاش ليقاسم سليمان حياته وواقعه وحاضره وماضيه أيضا أما البقيّة فكلهم أصوات يدرجها ضمن خطابه، فحتى ذاكرته مليئة بالأصوات التي تقاسمه أيامه وأحلامه وكل لحظاته المقززة التي يلعن من خلالها عالما وجد فيه دون أن تترسخ لديه قناعة الانتماء إليه، شديد الارتياب من كل المحيطين به إلاّ من شخصين أحدهما يقاسمه الواقع وهو

سليمان، وآخر يقاسمه الذّاكرة والانتماء والتّماهي، وهي شخصيّة إيزابيل ايبرهارت إضافة إلى الكثير من الشّخصيات التّاريخيّة التي حضرت كما يراها جوزيف لتنقل تاريخا آخر وثغرات ملأها بتاريخه هو ووجهة نظره ورؤيته النّمطيّة للعالم، حضر "إتيان ديني" و"خضرة" راقصة أولاد نايل، بالإضافة إلى الكثير من خطابات شخصيات مختلفة جزائريّة وغربيّة، شوه حضورها لينعم بفعل السّرد المملوء بالمغالطّات.

تبرز من خلال قراءتنا لهذه السّيرة الغيريّة/الرّواية، مسألة مهمة وهي أنّ الغرب كان لا يستطيع الاطلالة على الشّرق دون منظار المستشرقين، الآن أصبح الشّرق نفسه يختار مستشرقا يمنحه صوتا وتمركزا داخل العمل الأدبي ليعبر عن شرق نمطي مقزز ومتعفن، أصبح الشّرقي أصلا لا يستغني عن هذا الوسيط للتعبير عن دونيّة الشّرق يعيد تمظهره حتى في الرّواية/ السّيرة الغيريّة... لهذا نطرح سؤالنّا: هل يا ترى يتفق سعيد خطيبي مع الرّؤيّة التي تبناها جوزيف؟

حتى لو عُد هذاّ النّص "سيرة غيريّة" كان على الكاتب أن يقدم رؤيّة بديلة تجر العالم الرّوائي إلى توازن ما، كأن يختار صوتا في النّص يرد على ادعاءات "جوزيف" بدل السّقوط في التّنميطات الفجة التي تكررت في النّص، فسكوت خطيبي داخل النّص أوقعه في تفنيد السّجل الاستشراقي، فلم يسع لفضحه والرّد عليه، وكأنّه يتبنى وجهة نظر جوزيف دون مقاومتها. بل أسهم في تكريس نمطيّة العالم الكولونيالي: السّيد الأبيض والعبد الأصلاني. وكأنّ سعيد خطيبي: "وقع في نوستالجيا التّاريخ الكولونيالي وأعاد إنتاج البنيات والمقولات الإستشراقيّة لا شعوريا"(العين الثّالثّة،2017)[17].

للأسف لم تعدّ رؤيّة الغرب فقط نمطيّة، بل حتى لغة الشّرقي حين يختلق صوتا للغربي للتعبير عن الشّرق، سكت "سعيد خطيبي" وهو يمنح صوتا لهذا الفرنسي الهائم بإيزابيل عن أشياء كثيرة، كان رشيد ميموني أكثر جرأة في تقديمها عندما منح صوتا لشخصيّة "سي موريس" في روايته "اللعنة" (Rachid Mimouni 1993.)[18]، أوّلا لأنّه جعلها شخصيّة لا تتمركز على ذاتها، ثانيا: دخلت في علاقات وديّة مع غيرها من الشّخصيات، ثالثًا: أعطى لها شرعيّة الحديث عن خفايا الثّورة الجزائريّة، رابعا: لم تغادر هذه الشّخصيّة الجزائر في عز العشريّة الدّمويّة، خامسا: عاد "موريس" إلى حكاية

التّاريخ بحثا عن منابت الأزمة ولم يحزم أمتعته ويغادر مثلما فعل جوزيف. حرّر "سي موريس" صوته بعدما عرف أنّ الجزائر بدأت تثور، وأنّه في الفتنة تغيب معالم الثّبات وما جدوى الصّمت حين تزلزل الأركان، وفتنة الجزائر أطرافها كثر، الوصوليون والأصوليون وذاكرة ثوريّة مغيبة أخلطت أوراقاً كثيرة.

لم يكن "سعيد خطيبي" قادرا على رؤيّة هذه الأشياء لأنّه لم يعش الثّورة ولم يدرك أنّ الكتابة عن حقبة تاريخيّة ولو في رواية تخيليّة هو بناء لوعي، يدخل ضمن تأسيس أدب قومي يعكس ثقافة وطنيّة تستلهم التّاريخ لتفهم المعيش، وبالتّالي غابت هذه الأبجديات وانحلت في مركزيّة غربيّة نقلتها زاويّة نظر جوزيف إلى العالم، حطمت رؤيته بسبب احساسه باللانتماء إلى فضاء بوسعادة الأصيل: "بوسعادة، الملكة الصّهباء، المحروسة بالتّلال البنفسجيّة، كانت ترتدي حدائق معتمة وتنام بعشق على الحافة المنحدرة للوادي، حيث ينساب الماء على الحجارة البيضاء والورديّة، بانحناء على الجدران التّرابيّة الصّغيرة، كانت أشجار اللوز تذرف دموعها البيضاء بفعل مداعبة الرّيح لها.. عطرها الفواح كان يحلق في الفتور الرّخو للجو محدثا كآبة... لو عادت إيزابيل إلى بوسعادة اليوم لكتبت شيئا مختلفا، فهذه المدينة صارت ملكة صهباء منتهكة الشّرف، تنام على حافة الوادي كي لا تنظر إلى نفسها، ولا ينظر إليها المارون، أشجار اللوز فيها يبست أوراقها، وسلب منها عطرها، وهي الآن تقف على بعد أمتار قليلة من الهاويّة، تخاف أن تستيقظ يوما وتجد نفسها مدينة مخصيّة بلا فحولة[19]"(سعيد خطيبي 2016). بوسعادة إذا مثلت صورة مصغرة عن الجزائر كلها، جزائر التي لم يحس فيها جوزيف بالانتماء: "مع مرور السّنوات، يبدو أني فهمت سبب صمت الرّاهب وعبارة سليمان، فالعيش هنا ليس خيارا، بل هو قدر متوحش كان يتوجب علي تقبله رغما عني. برنار عاش في هذا البلد مقتنعا بأنه يخدم الرّب وأنا عشت في هذا البلد مقتنعا بأن فعلتي تخدم نزوات الذّات وترضيها"(سعيد خطيبي، 2016)[20].

لو تجرد "سعيد خطيبي" من ذاتيته وذاتيّة بطله لاستطاع أن يرى أشياء كثيرة غيبت في هذا النّص وأصبحت مسكوتا عنها، فـ"سعيد خطيبي" سكت عن الأسباب الحقيقيّة التي أشعلت فتائل العشريّة السّوداء[21]، وانزوى ليرسم الصّورة النّمطيّة التي يغيب في

مشهدها الأيدي الكثيرة التي نسجت الأزمة، وهو ما فعله رشيد ميموني في "اللعنة" ومحمّد ساري في "القلاع المتآكلة" بجرأة كبيرة.

أسهم "سعيد خطيبي" في تأكيد الخطاب السّائد والحديث عن الأصولين فقط هكذا كَنَبتَة بريّة نمت بين ليلة وضحاها، دون الخوض في السّياسة العالميّة والخصوم السّياسيين والثّقافيين الذين تولدوا مع امبرياليّة غذّاها الاستعمار الغاشم، قضايا مهمة سكت عنها "سعيد خطيبي"، ربما عن غير وعي، لأنّه أصبح اللا منتمي. أو تنطبق عليه الصّورة التي رسمها "فرانتز فانون وألبار ميمي، حول إنسان العالم الثّالثّ المستعمر والمقهور وتصوره التّحقيري لنفسه"(محمّد الذّودوي،2012)[22]. فنص أربعون عاما في انتظار إيزابيلا جمع كل أنواع تحقير الذّات والفضاء.

سكت سعيد خطيبي عن مضمرات أخرى، أهمها عدم قدرة "جوزيف" الاندماج مع

الجزائريين، وهذه من مخلفات الاستعمار، فنظرة الجزائريين إلى الفرنسين مستمدة من الفترة الكولونياليّة، التي رغم امتدادها لم يستطع الفرنسيون أبدا الاندماج مع الجزائريين أو تكلم لغتهم، فهذا من بين مخلفات الاستعمار المتوارثة، فليس على جوزيف أن يستغرب من نظرة الآخرين له.

5. خاتمة: في ختام هذه الدّراسة ترتسم في ذهني أسئلة كثيرة من بينها لماذا يا ترى تبنى سعيد خطيبي رؤيّة جوزيف لعالمه وسقط في شراك عوالم جاهزة يستهجنها كل من شهد الثّورة أو قرأ عنها؟ لماذا لم يتبن سعيد خطيبي رؤيّة تنطلق من وعيه

الذّاتي لخطابه حتى وإن عكس محتوى خطابه رؤيّة أحاديّة الجانب فهي هنا قاصرة عن دمج آفاق التّنوع الذي شهدته الفترة؟

وهنا تصدق مقولة هايدن وايت: "أنّ كلّ سرد مهما بدا ممتلئا، فإنّه مبني على أساس مجموعة من الأحداث التي كان يمكن أن يشملها لكنها استبعدت، وهذا صحيح بالنّسبة إلى السّرديات الخياليّة بمقدار ما هو صحيح بالنّسبة إلى السّرديات الواقعيّة"(هايدن وايت،2017)[23] وهذا الاستبعاد مليء بالمضمرات التي لا مجال لتفسيرها ولا للبحث عنها في هذه الدّراسة.

6. قائمة المراجع: [24]

- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الخامس، عالم المعرفة، الجزائر، 2016
- سعيد خطيبي: أربعون عاما في انتظار إيزابيل، منشورات ضفاف/بيروت منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1 2016.
- جاك لوغوف: التّاريخ والذّاكرة، ترجمة: جمال شحيّد: المركز العربي للأبحاث ودراسة السّياسيات، الطّبعة الأولة نوفمبر، 2017
- وحيد بن بوعزيز جدل الثّقافة، مقالات في الآخريّة والكولونياليّة والدّيكولونياليّة دار ميم للنشر والتّوزيع، الجزائر، السّداسي الثّاني، 2018
- هايدن وايت: محتوى الشّكل، الخطاب السّردي والتّمثيل التّاريخي، ترجمة نايف الياسين، مراجعة فتحي المسكيني، هيئة البحرين للثقافة والآثار، البحرين، المنامة الطّبعة الأولى، 2017
- محمود الذّوداوي: التّخلف الآخر: عولمة أزمة الهويات الثّقافيّة في الوطن العربي والعالم الثّالثّ، الأطلسيّة للنشر، تونس، 2002.

- مجموعة من المؤلفين: العين الثّالثّة تطبيقات في النّقد الثّقافي وما بعد الكولونيالي، دام ميم للنشروالتّوزيع، الجزائر، 2017 مجلة انزياحات العدد الأوّل جوان 2020.
- ادوارد سعيد: الثّقافة والامبرياليّة: ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت الطّبعة الثّالثّة، 2004.
- Denis Brahimi ; Algerie enfrememententK littérature ;cinema ; peinture ; Essai ;al khalima ; 2015
- Rachid Mimouni : La malédiction; Edition El chihab, 1993

8. هوامش♥:

[1] ادوارد سعيد: الثّقافة والامبرياليّة: ترجمة كمال أبو ديب، دار الآداب، بيروت، الطّبعة الثّالثّة، 2004 ص66.

[2] يمكن للقارئ أن يعود إلى مقال كتبته عن أصدقاء الجزائر والانتماء المستحيل، الذي صدر ضمن كتاب مجلة انزياحات العدد الأول جوان، 2020، ص11، ليقف على ما قصدت باستعمالي للفظة مفارقة ، حيث وجدت أنّ كتابة هنري علاق لمذكراته، تحمل معنى الوفاء لقضيّة اقتنع بها وهي محاربة الاستعمار الفرنسي، وعشق أبدي لوطن لم يعد له وهو الجزائر التي غادرها مكرها بعد الاستقلال، كتب هذا المناضل ونقل لنا كيف رأى الثّورة وكيف عاشها وكتب عنها بحثا عن مستقبل جديد للجزائر، لا يتجدد إلا بمعرفة ماض مغيب مهما كان شنيعا، تبقى فيه أثار وجه مشرق لمجموعة من الفرنسيين والأوروبيين المناضلين والمناصرين للثورة التّحريريّة، لم تنصفهم الحقائق التّاريخيّة ولا الذّاكرة. وبين سعيد خطيبي الجزائري كيف كتب عن الجزائر وثورتها من منظور شخصيّة فرنسيّة اختارها، لا تشبه البتة شخصيّة هنري علاق وان اشتركا في انضمامها لصفوف الجبهة.

[3] جاك لوغوف: التّاريخ والذّاكرة، ترجمة: جمال شحيّد: المركز العربي للأبحاث ودراسة السّياسيات، الطّبعة الأولى نوفمبر، 2017، ص10.

[4] إيزابيل ابرهارت Isabelle Eberhardt ولدت 1877عاشت مع الرّحالة الصّحراوين توفيت في عين الصّفراء في 25أفريل 1904 حكت دونيس ابراهيمي كيف عاشت إيزابيل مع الرّحالة وكتبت عن حياتهم، وكيف حاولت فرنسا القضاء على رؤساء قبائل الرّحالة الذين ناهضوا الاستعمار، العودة إلى كتاب Denis Brahimi ; Algerie enfrememententK littérature ;cinema ; peinture ; Essai ;al khalima ; 2015 ; p152

[5] سعيد خطيبي: أربعون عاما في انتظار إيزابيل، منشورات ضفاف/بيروت، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1 2016.

[6]سعيد خطيبي: أربعون عاما في انتظار إيزابيل: ص94.

[7]المصدر نفسه: ص42.

[8]ا سعيد خطيبي: أربعون عاما في انتظار إيزابيلا، ص131

[9] سعيد خطيبي: أربعون عاما في انتظار إيزابيل، ص52

[10]وحيد بن بوعزيز جدل الثّقافة، مقالات في الآخريّة والكولونياليّة والدّيكولونياليّة، دار ميم للنشر والتّوزيع، الجزائر، السّداسي الثّاني، 2018، ص126.

[11]الانتماء إلى الدّين، والهويّة والتّاريخ والواقع والعادات...

[12]سعيد خطيبي: أربعون عاما في انتظار إيزابيل ص102.

[13] يحاول جوزيف التّماهي مع إيزابيل ابرهارت، يناجيها ويبحث عن حضورها الرّوحي في حياته، هروبا من الشّرق الحقيقي الذي عايشه ورفضه جملة وتفصيلا، لأنه لم يدرك أن إيزابيل وجدت ضالتّها في الجزائر لأنها جاءت في "سياق الجوع الميتافيزيقي الذي كانت أوروبا تعاني منه في القرن التّاسع عشر جراء تصاعد ما يسمى القيم الشّيئيّة كبديل للقيم الإنسانيّة التي حفل بها عصر الأنوار، لهذا عادت موضوعة الشّرق ملاذا وحنينا لكثير من الكتاب القلقين، الذين وصل بعضهم إلى حد اعتناق الإسلام كإسماعيل أوربان ونصر الدّين ديني وإيزابيل إبرهارت" إذا ماديّة العالم الغربي جعل مثل هؤلاء الأدباء يبحوثون عن سحر آخاذ وجدوه في الشّرق "كمادة يتعكزون عليها لإعادة ربط الجسد بالمصل الرّوحي، وهو مايسمى الاستشراق الرّومانسي" ينظر وحيد بن بوعزيز جدل الثّقافة ص126، 127.

[14] يمكن للقارئ أن يعود إلى كتاب آراء وأبحاث في تاريخ الجزائر ليستفيد مما كتبه أبو القاسم سعد الله في دراسته المعنونة: " ثلاث نساء أوروبيات (لوس وإيبرهارد وبيكار) في مجابهة مجتمع عربي (حالة الجزائر)، يورد أبو القاسم سعد الله ص123 تعريفا موجزا

بإيزابيل، وانتماءها للطريقة القادريّة، وأشار إلى مغامراتها غير العاديّة ص125، وقصتها مع سليمان .. واتهامها بالتّجسس لصالح ألمانيا،.. ينظر:أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الخامس، عالم المعرفة، الجزائر، 2016، ص 124، إلى 127

[15]: سعيد خطيبي: أربعون عاما في انتظار إيزابيل، ص130.

[16]سعيد خطيبي: أربعون عاما في انتظار إيزابيل ص138.

[17] عبد الرّحمن وغليسي: اللاشعور الكولونيالي وسؤال الهويّة عند سعيد خطيبي في رواية أربعون عاما في انتظار إيزابيل، ضمن مؤلف جماعي لمجموعة من الأكادميين، تقديم أد وحيد بن بوعزيز: العين الثّالثّة تطبيقات في النّقد الثّقافي وما بعد الكولونيالي، دام ميم للنشروالتّوزيع، الجزائر، 2017، ص89.

[18] Rachid Mimouni : La malédiction ; Edition El chihab,1993 . P113

[19]سعيد خطيبي: أربعون عاما في انتظار إيزابيل، ص89

[20]سعيد خطيبي: أربعون عاما في انتظار إيزابيل: ص 90

[21] شكل الأُصُوليون حلقة في تيّار الدّم الخانق الذي مزّقنا، من الدّاخل ومنابعه خارجيّة تلبي سياسات إمبرياليّة فجة رأت الجزائر وغيرها من البلدان سوقا كبيرا لا بد أن تفتحه لكن الأمر لن يكون سهلا إلا بقلب البلد رأسا على عقب بخلق إرهاب دموي يتلف خيوط الحقائق. لهذا فضح بعض الفلاسفة والرّوائيين من صنعوا التّطرف. ونجد مثلا "رشيد ميموني" في روايته اللعنة حاول عبر الشّخصيات المختارة تقديم رؤيّة لعالم متصارع في دوامة من المشاكل البطالة والفقر ...غير متصالح مع تاريخه وواقعه غير واع بما يدبر خارج الحدود ومن وراء البحار. فكان لقمة مستساغة في أيدي من خطط لهتك البلاد وتوليد أصوليّة مقيتة تلاعبت بعقول الكثير من الشّباب وجرتهم إلى دائرة حرب أهليّة لم تزد وطنهم إلا خرابا استفاد منه من خطط له فقط..

[22]محمود الذّوداوي: التّخلف الآخر: عولمة أزمة الهويات الثّقافيّة في الوطن العربي والعالم الثّالثّ، الأطلسيّة للنشر، تونس، 2002، ص6.

[23]هايدن وايت: محتوى الشّكل، الخطاب السّردي والتّمثيل التّاريخي، ترجمة نايف الياسين، مراجعة فتحي المسكيني، هيئة البحرين للثقافة والآثار، البحرين، المنامة الطّبعة الأولى، 2017، ص45.